رسائل نادرة

إيضاح البيان عن معني أم القرآن

سليمان بن عبد القوي، الطوفي، الحنبلي
ت . سنة ٧١٦ هـ

تحقيق
الدكتور علي حسين البواب

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

رسائل نادرة

إيضاح البيان عن معنى أم القرآن

سليمان بن عبد القوى الطوفى الحنبلى
ت. سنة ٧١٦ هـ

تحقيق
د. علي حسين البواب

طبعة
١٤١٩هـ / ٢٠٠٠م

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد / الظاهر
ت: ٥٩٢٢٦٢٠ ـ فاكس: ٥٩٣٦٢٧٧

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّد الأنبياء والمرسلين، وبعد:

فهذا كتاب من الكتب التي عُنيت بالقرآن الكريم، ودارت حول سورة الفاتحة واستنباط بعض الأحكام والفوائد منها، وهو واحد ممّا ألف علماء العربية حول القرآن العظيم.

ومؤلف الكتاب(١) هو سليمان بن عبد القوي بن عبدالكريم، الطوفي، الصرصري نجم الدين.

ولد في طُوفَ - من أعمال صَرْصَرَ - بعد سنة سبعين وستمائة، وتلقّى فيها العلوم والمعارف، وتردّد على صرصر - وهي على بعد فرسخين من بغداد، فتلقى العلم على شيوخها، ثم ارتحل إلى بغداد سنة إحدى وتسعين وستمائة،

---

* ورد للباحث ترجمة في العدد ١٨.

(١) للطوفي ترجمة في عدد من المصادر منها: ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ٢/٣٦٦، والدرر الكامنة ٢/٢٤٩، وعني المحدثون ممن كتب عن الطوفي أو حقق بعض كتبه بالحديث عنه، وأوسع ما كتب عنه وأحسنه: المصلحة في التشريع الإسلامي ونجم الدين الطوفي للدكتور مصطفى زيد ينظر ٦٥ - ١١٠. ومقدمة شرح مختصر الروضة للدكتور إبراهيم بن عبد الله آل إبراهيم - ينظر ١٧ - ٥٢، ٧٥ - ١٤٠، ومقدمة الكتاب نفسه بتحقيق د. عبدالله التركي ٢١ - ٣٨.

آخذاً ومفيداً من علماء العصر فيها، فحفظ «المحرر» في الفقه الحنبلي لمجد الدين بن تيمية وتعلّم العربية والفرائض والمنطق، وسافر إلى دمشق سنة أربع وسبعمائة، فالتقى بشيوخها ومنهم الإمام تقي الدين بن تيمية، وانتقل إلى مصر سنة خمس وسبعمائة، فأقام بها مدّة، تلقّى على علمائها، وفيها نال مكانة، وذاع صيته بين أئمة الحنابلة وهناك ألف عدداً من الكتب، وحدثت له فتنة، وسجن، فغادر القاهرة إلى دمياط، ثم إلى قوص - في الصعيد - حيث أقام فترة، ثم غادرها إلى مكة المكرمة حاجاً عام أربعة عشر وسبعمائة، وزار المدينة المنورة، ثم حج ثانية في العام التالي، وارتحل بعدها إلى بيت المقدس، فمدينة الخليل عليه السلام وفيها وافته المنية سنة ست عشرة وسبعمائة.

أخذ الطوفي في رحلاته عن عدد كبير من علماء الأمصار من الفقهاء والأصوليين والمحدثين واللغويين والنحويين وغيرهم. وممن تلمذ لهم[1]: علي بن محمد الصرصري، وعبدالله بن محمد الزريراتي، ومحمد بن الحسين الموصلي، وإسماعيل بن علي بن الطبال، وأبو بكر أحمد بن علي القلانسي، وتقي الدين بن تيمية، ومحمد بن أبي الفتح البعلي، ويوسف بن عبدالرحمن المزّي، وعبدالمؤمن بن خلف الدمياطي، وأبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي وغيرهم.

وتولّى الطوفي التدريس ونال مكانة في عصره، ووصفه العلماء بالفضل، والمشاركة في العلوم، وسعة المعرفة، وشدّة الذكاء، وقوّة الحافظة، وكثرة العبادة، والتقلّل من الدنيا.

وألّف الطوفي عدداً من الكتب في علوم مختلفة، منها[2]: الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية - الإكسير في قواعد التفسير - الانتصارات الإسلامية - البلبل في أصول الفقه - تفسير بعض سور القرآن الكريم - جدل

---

(١) ذكر الدكتور إبراهيم بن عبدالله في مقدمة تحقيقه لشرح مختصر الروضة ٤١ - ٤٧ تسعة عشر شيخا من شيوخ الطوفي، وترجم لهم. وينظر مقدمة الدكتور عبدالله التركي ٢٢ - ٢٤.

(٢) في مقدمة الدكتور إبراهيم بن عبدالله ١٠٢ - ١٠٤ ذكر لمؤلفات الطوفي، ثم حديث مفصل عن الموجود منها. وينظر المصلحة ٩١ - ١١٠، ومقدمة الدكتور عبدالله التركي ٢٤ - ٣٢.

القرآن ـ حلال العقد في أحكام المعتقد ـ درء القول القبيح ـ شرح الأربعين النووية ـ الشعار المختار على مختار الأشعار ـ الصعقة الغضبية في الرد على منكري العربية ـ مختصر روضة الناظر ـ موائد الحيس على فوائد امريء القيس ـ وغيرها.

رُمي الطوفي بالتشيع، بل بالرفض، ونقل ذلك بعض من ترجم له، وكان أكثر من تعرض له وحمل عليه ابن رجب في «الذيل»، فقد جرّحه، وكال له التهم، وذكر بعض الأدلة على ذلك.

واجتهد المحدثون ممّن درسوا مؤلفات الطوفي أو كتبوا عنه في ردّ هذه الشبهة، وتحدّثوا عن سببها، وأن الطوفي تكلّم عند شيخه سعد الدين الحارثي في القاهره بكلام عدّه الشيخ تطاولاً، فأوكل شمس الدين ابن الشيخ أمر الطوفي إلى الشرط، واتهموه بالتشيع، فحبس وعُزّر، وطيف به في شوارع القاهرة.

وقد قدّم الدكتور مصطفى زيد، والدكتور إبراهيم بن عبدالله أدلّة كثيرة واضحة تدلّ على أنه براء من هذه التهمة، وأنّه حنبلي النشأة والثقافة، وأنه لم يُعرف عنه منذ كان في بلده إلى أن دخل بغداد ودمشق والقاهرة شيء غير ذلك، وأن أقواله ونصوصه في مؤلفاته تبيّن بوضوح أنه لا علاقة له بالتشيّع والرفض، بل إن فقهه الحنبلي، وعنايته بكتب المحدّثين من أهل السنة تدلّ على عكس ذلك، وفي مؤلّفاته مناقشات واعتراضات وردود على الشيعة، واعتراض على أصولهم، وأن ما نُسب إليه ليس إلاّ دسيسة ومكيدة، وقد حيكت لعدد من العلماء قبله، بل لم ينج منها شيخه ابن تيمية[1].

إيضاح البيان عن معنى أم القرآن:

وهذا الكتاب الذي نقدم له ـ جعله المؤلف في فصول: تحدّث في الأول عن معنى «أم» وعن معنى «القرآن». وفي الثاني قسم الكلام إلى مجمل ومبين،

---

(١) ينظر المصلحة العامة ٧٤ ـ ٨٨، وشرح مختصر الروضة ٨٢ ـ ٩٧ وينظر أيضاً رأي الدكتور عبدالله التركي ٣٣ ـ ٣٧ من المقدمة.

وذكر أنّ لكل منهما مراتب. وتحـدّث عن سبب الإجمال، وسبب البيـان، وعن بعض مراتب الإجمال والبيـان في القرآن الكـريم. وفي الفصل الثـالث بينّ أن القرآن يشتمل على مقاصد الإيمان من التصديق بالله تعـالى والملائكـة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر، وأن هذه المقاصد جميعها في الفاتحة ـ وأخذ يبينّ ذلك.

وذكـر المؤلف أن ما في القـرآن من القصص والأخبار تكميـل للمقـاصـد المـذكورة، وأن سـورة الفاتحـة تتضمّن ذلك، كـما أن في هـذه السـورة وعـداً ووعيداً ثم أشار إلى أن القـرآن لا يخرج عن أن يكـون ثناء عـلى الله تعالى، أو عبادة له سبحانه، والفاتحةُ أولها ثناء وآخرها عبادة. ثم ذكر أسماء الفاتحة.

وبعد هذا أورد المؤلف بعض الفوائد، فذكر فضائل بعض السور وأسرار ذلك، وأسباب اختصاصها بما ورد فيها، وتخلَّله تفسَـير موجـز لسورتي الفلق والناس.

أما نسبة الكتاب للطوفي فواضحـة جليّة، رغم أنني لم أقف عـلى من نسب الكتاب له من القدماء، فقد ذكره إسـماعيل بـاشا البغـدادي وهو يعـدّد مؤلفات الطوفي(١)، والكتابُ في مجموع يحتوي على عدد من مؤلفاته، كتب في أول وآخر كثير منها اسم المؤلف، والأوضح من ذلك أن المؤلف أحال فيـه على كتـابه «الـرياضَ النـواضر في الأشبـاه والنـظائـر» وهـذاِ الأخـير ممـا ذكـره لـه المترجمون، كما أنه أحال على «الإيضاح» في كتابه «قاعدة جليلة في علـم الكتاب والسنة»(٣).

مخطوطة الكتاب :

يعرف لإيضاح البيان نسخة مخطوطة واحدة، وردت في فهرس مخطوطات برلين، وذكرها بروكلمان(١)، ولم يشر إلى غيرها، ولم يهتد الدارسون والمعنيّـون

(١) هدية العارفين ١/ ٤٠٠.

(٢) ينظر ص ١٠٣ من مقدمة شرح مختصر الروضة بتحقيق د. آل إبراهيم.

(٣) تاريخ الأدب العربي ـ الأصل الألماني ٢ /١٠٨.

بالطوفي إلى غيرها. والكتاب في مجموع يحوي عدّة رسائل للمؤلّف، وكتاب «الإيضاح» تحت الرقم ٩٤٠، ويبدأ من ق ٤٩ أ وينتهي في ورقة ٥٧ ب. وفي كلّ صفحة تسعة عشر سطراً.

وقد جعل «الورد» مفهرس مخطوطات المكتبة نهاية الكتاب في الورقة ٦٢، مدخلاً معها تفسير المؤلف لسورتي «الطارق» و «الإنشقاق»، وقد رجّحت ألّا تكونا منه، وأن تجعلا مستقلّتين، وأنه لا علاقة بينهما وبين الفوائد التي أثبتها إيضاح البيان، ويرجّح ذلك احتواء المجموع نفسه على تفسير سور « ق » و «القيامة» و «النبأ» للمؤلف نفسه، فهذا قوّي في نفسه أن تكون سورتا «الانشقاق» و «الطارق» مثلها، وأن تنشر مستقلة[1].

ورسالة إيضاح البيان ـ كسائر الكتب في المجموع ـ كتبت بخط نسخي واضح، في القرن التاسع الهجري تقديراً، وقد نسخت عن نسخة المؤلف التي كتبها بنفسه في القاهرة سنة ٧١١ هـ ـ في سجنه، وناسخ المخطوطة ـ كما ذكر في آخر سورة « ق » و «حلال العقد» هو محمد بن عبدالوهاب بن محمد الأنصاري الحنبلي. وقد قابل الناسخ النسخة على الأصل، وأثبت بعض التصويبات.

وعن هذه النسخة حقّقت الكتاب، ووضّحت ما يحتاج إلى توضيح، وخرّجت ما يجب تخريجه، وعلّقت عليه بعض التعليقات دون إطالة.

ونسأل الله تعالى أن ينفع بالكتاب، وأن يثيبنا عليه، وأن يعفو عن تقصيرنا.

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

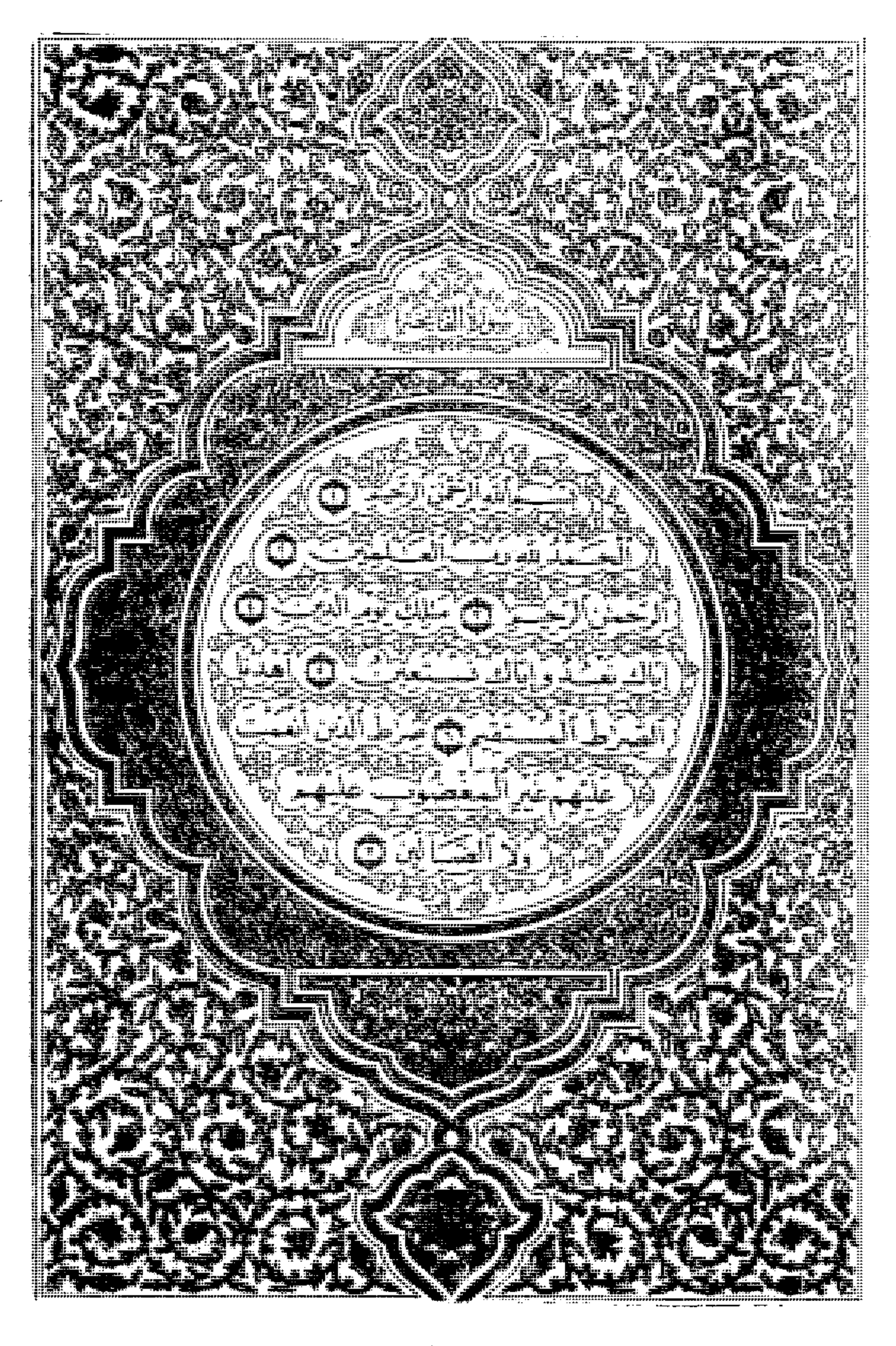
---

(١) وهي كلها تحت الطبع الآن بتحقيقي.

ايضاح البيان عن معنى ام القرآن ويليه فوائد اخر

للشيخ نجم الدين سليمان بن عبد القوي الطوفي تغمده الله برحمته

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله بجميع محامده
كلها ما علمنا منها وما لم نعلم على نعمه كلها ما علمنا منها وما لم
نعلم على خلقه كلهم ما علمنا منهم وما لم نعلم ولقد كان من فضل
الله علينا عظيما هذه رسالة نترجمها بإيضاح
البيان عن معنى ام القران وسبعة فوايد اخر والكلام على ذلك
في فصول احدها بيان حقيقة لفظ الام والقران اما الام
فيقال هي اصل الشي ومنه ام الانسان لانها اصله الذي
خرج منه ومنه ام القرى لانها اصل القرى لما ذكر من
انها دحيت من تحتها فيقال ان الارض كانت رابية حيث
هي مكة ثم بسطت من هنالك قال الله عز وجل والارض
بعد ذلك دحاها والارض فرشناها جعل لكم الارض
بساطا واشباه ذلك ويقال للارض ام البشر لانها
اصله منها خلق ومنه قوله عز وجل والله انبتكم من الارض
نباتا الى خالق بشرا من طين وفي شعر امية
والارض معقلنا وكانت امنا منها خلقنا وفيها نولد
وكذا قوله عز وجل فامه هاوية اي يلازم الهاوية ملازمة
الطفل امه التي هي اصله وقيل هذا من قولهم هوت
امه دعاء عليه ولعل اصله ان ينكس على ام راسه ويقول
النحاة ان الشرطية هي ام الباب والا ام الباب في الاستثناء



الثاني ان يكون المعنى الذي يوسوس كائنا او مستقرا في صدور الناس فيكون محل الجار والمجرور نصبا على الحال وهو اوفق للسنة الصحيحة وهو قوله صلى الله عليه وسلم ان الشيطان يجري من ابن ادم مجرى الدم واعلم ان الوسوسة على القلب وانما عبر عنه بالصدر لانه محل القلب كما عبر عن العقل بالقلب لانه محله في قوله عز وجل ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب وقوله عز وجل من الجنة والناس هذا بيان لجنس الخناس وتقسيم له الى نوعين الجنة والناس اي من شر الوسواس الخناس الذي هو من الجنة والناس وهذا ينظر الى قوله عز وجل وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا وهو معنى قولهم ربنا استمتع بعضنا ببعض في بعض الاقوال والله عز وجل اعلم بالصواب قوله عز وجل والسما والطارق وما ادراك ما الطارق النجم الثاقب والسما قسم ثم هل هو قسم بنفس السما لانها خلق عظيم يدل على عظيم قدرة خالقها لقوله عز وجل لخلق السموات والارض اكبر من خلق الناس او قسم برب السما على تقدير حذف المضاف فيه قولان اما الطارق فقد فسره الله عز وجل بالنجم الثاقب سمي طارقا لطروقه ليلا اي خروجه وظهوره ومنه قول هند بنت عتبة يوم احد نحن بنات طارق نمشي على النمارق وما ادراك

بســـم الله الرحمن الرحيـــم

الحمـد لله بجميع محـامده كلِّهـا، ما عَلِمْنـا منها ومـا لم نعلم، على نِعَمـه كلّها، ما علمنا منها وما لم نعلم، على خلقه كلهم ما عَلمنـا منهم وما لم نعلم، ولقد كان فضل الله علينا عظيما[1].

هـذه رسالـة نترجمهـا بـ «إيضاح البيـان عن معنى أمّ القرآن»، ونتبعـه[2] فوائد أُخَر.

والكلام على ذلك في فصول :

أحدها : بيان حقيقة لفظ «الأم» و «القرآن» :

أما **الأمّ** فيقال : هي أصل الشيء، فمنه أمُّ الإنســان، لأنها أصله الذي خـرج منه، ومكـة أمّ القرى لأنها أصـل القـرى، لِمـا ذُكـر من أنها دُحيت من تحتها[3]، فيقال إن الأرض كانت رابية حيث هي مكة، ثم بُسطت من هناك. قال الله عز وجـل : ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾[4] ﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا ﴾[5]، ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴾[6] وأشباه ذلك. ويقال للأرض أمّ البَشَر، لأنها أصله، منها خُلق، ومنه قـوله عـز وجل : ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾[7]، ﴿ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾[8]. وفي شعر أُمية :

والأرضُ منشــأنـا، وكـانت أُمَّنــا منهــا حقيقتُنـا، وفيهــا نُــولَــدُ[9]

وكذا قوله تعالى : ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾[10] أي يـلازم الهاويـة ملازمـة الـطفـل أمّـه التي هي أصله. وقيـل : هـذا من قـولهم : هَـوَتْ أُمّـه، دعـاءً عليه[11]، ولعَلَ أصله أن يتنكّس على أمّ رأسه.

---

(١) في الأصل (ولقد كان من فضل الله علينا عظيما) وقد يكـون المراد : ولقـد كان الحمـد أو العلم ـ من فضل الله علينـا ـ عظيما. وفيه بعد.

(٢) الضمير يعود على «الإيضاح».

(٣) ينظر الطبري ١/٣٧، والقرطبي ١/١١٢، والمفردات ـ أم.

(٤) سورة النازعات، آية ٣٠.

(٥) سورة الذاريات، آية ٤٨.

(٦) سورة نوح، آية ١٩.

(٧) سورة نوح، آية ١٧.

(٨) سورة ص، آية ٧١.

(٩) في القرطبي ١/١١٢، ٢٠/١٦٧. فالأرض معقلنا.... وفيه ديوان أمية ٢٨ : فالأرض معقلنا.....

(١٠) سورة القارعة، آية ٩.

(١١) ينظر مجمع الأمثال ٢/٣٩٠.

ويقول النحاة : «إنْ» الشرطية هي أم الباب، و«إلاّ» أم الباب في الاستثناء، يعني أصله الذي هو أكثر دوراناً. وكذلك : رومية أم الروم : أي أصل بلادها التي ترجع إليها ويعتمد عليها﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[1]، ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[2] يعني أصله الذي نقل منه، وهو اللوح المحفوظ[3].

فأمّ الكتاب يستعمل بمعنيين : أحدهما هذا ـ لما ذُكِر. والثاني : الفاتحة لما نذكر إن شاء الله عزّ وجل من أنها متضمِّنة لكلّيات القرآن إجمالاً.

وأما القرآن فالمراد به الكلام الإلـهي الجامع النازل على محمد ﷺ، مشتق من القَرْء : وهو الجمع، لجمعه ما ذكرنا. ومادة «قرأ» إلى هذا ترجع[4].

الفصل الثاني :

إعلم أن الكلام من حيث هو على ضربين : مجمل، ومبيَّن مفصَّل، والضربان متفاوتان في المراتب، فبعض المجمل أشدّ إجمالاً من بعض، وبعض المبيَّن أشدّ بياناً من بعض، حتى ينتهي المجمل إلى غاية الإجمال، والمبيَّن إلى غاية البيان وسبب الإجمال تارة قصور المتكلّم عن البيان، وتارّة قوة إدراك السامع بحيث يفهم بأدنى إشارة، فيتّكل المتكلّم على ذلك، فيقتصر على الإجمال. وتارة الأمران : قصور المتكلّم وقوّة السامع، فلا يبالي المتكلّم ـ كان قاصراً عن البيان أو قادراً عليه، وتارّة يعلّق المصلحة بالإجمال من إخفاء سرٍّ أو امتحان سامع بإدراك معنى خفيٍّ، وغير ذلك من الأسباب.

وسبب البيان تارةً فصاحةُ المتكلِّم وبلاغته، وتارة ضعف فهم السامع، فيحرص المتكلّم على إفهامه، وتارة الأمران جميعاً، وتارة اهتمام المتكلِّم بمعنى

(١) سورة الزخرف، آية ٤.

(٢) سورة الرعد، آية ٣٩.

(٣) ينظر القرطبي ١/١١١، ٩/٣١ والدر المنثور.

(٤) في المقاييس ٤/٧٨ : القاف والراء والحرف المعتل : أصل صحيح يدل على جمع واجتماع وفي ٤/٧٩ : وإذا هُمز هذا الباب كان هو والأول سواء.

الكلام، فيحرص على إظهاره في بعض مراتب البيان وغير ذلك من الأسباب.

ومن أمثلة تفاوت مراتب البيان قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً . . .﴾ الآيات، فإنه عزّ وجل أمرهم أولاً بذبح بقرة وهي مسّمى مطلق في غاية الإجمال، ثم بيّن لهم أنها ﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ ثم بيّن لهم أنها ﴿صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ ثم بيّن لهم أنها ﴿لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ فكان ذلك غاية البيان لهم، فحينئذ قالوا: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾(١).

ومن أمثلة ذلك أن الله عز وجل بيّن مواقيت الصلاة في كتابه بقوله عز وجل: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾(٢) الآية. ثم بقوله عز وجل: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾(٣) ثم بقوله عز وجل: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾(٤) ﴿. . . وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾(٥) الآيتين، وبقوله عز وجل: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ . . .﴾(٦) الآيات.

وهي متفاوتة في البيان على ترتيبها الذي ذكرناه. ثم جاءت السُّنّة في رتبةٍ ثانيةٍ من البيان، كحديث ابن عباس وجابر وبريدة(٧) وغير هذا. ثم جاء كلام الفقهاء في رتبة ثالثة من البيان، فهي في غايته. ثم إن كتب الفقهاء

---

(١) الآيات من سورة البقرة، ٦٧ ـ ٧١.
(٢) سورة الروم، آية ١٧.
(٣) سورة الطور، الآيتان ٤٨، ٤٩.
(٤) سورة ق، آية ٣٩.
(٥) سورة طه آية ١٣٠. وتمامها: ﴿وسبّح بحمد ربّك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها﴾.
(٦) سورة الإسراء، آية ٧٨.
(٧) حديث ابن عباس في مواقيت الصلاة: «أعتم النبي ﷺ ذات ليلة العشاء...» صحيح مسلم ـ كتاب المساجد باب ٣٩ ـ ١/٤٤٤. وحديث جابر: «كان رسول الله ﷺ يصلي الظهر بالهاجرة، والعصر....» المصدر السابق باب ٤٠ ـ ١/٤٤٦. وحديث بريدة: «أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن وقت الصلاة فقال له:....» المصدر نفسه باب ٣١ ـ ١/٤٢٨، ٤٢٩.

متفاوته في البيان، فبعضها أبين في ذلك من بعض، ولكن جملتها بلغت غاية البيان.

ومن أمثلة ذلك قوله عز وجل: ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾[١] فهذا إشارة إلى قصَّتهم إجمالا، ثم استقصى بيانها في باقي السورة.

وكذلك قوله عز وجل: ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[٢] فهو إشارة إلى قصَّتهما إجمالا، ثم استقصى بيانها في سياق السورة.

وكذلك قصص جماعة من الأمم مع أنبيائها، أجمَلها عزّ وجل في مكان كسورة «الذاريات» وبيّنها في مكان كسورة «الأعراف و«الشعراء» و«هود»[٣] وبعضها أبينُ من بعض بياناً مطلقاً، أو من وجه، ولهذا يستفاد من ذلك في بعض السور ما لا يُستفاد من بعض، ثم استقصى القُصّاص بيان ذلك، مثل وهب[٤] والكسائي[٥]، والثعلبي[٦]، وأجودها كتاب وثيمة بن موسى بن

(١) سورة يوسف، آية ٧. (٢) سورة القصص، آية ٣.

(٣) من القصص التي جاءت مجملة في الذاريات ثم فُصّلت في سور الأعراف وهود والشعراء:

(أ) قصة إبراهيم عليه السلام: سورة الذاريات ٢٤ ـ ٣٧، وسورة هود ٦٩ ـ ٧٦، وسورة الشعراء ٦٩ ـ ٨٩.

(ب) قصة موسى عليه السلام: سورة الذاريات ٣٨ ـ ٤٠، وسورة الأعراف ١٠٣ ـ ١٧١، وسورة هود ٩٦ ـ ٩٩، وسورة الشعراء ١٠ ـ ٦٧.

(ج) قصة هود عليه السلام: سورة الذاريات ٤١ ـ ٤٤، وسورة الأعراف ٦٥ ـ ٧٢، وسورة هود ٥٠ ـ ٦٠، وسورة الشعراء ١٢٣ ـ ١٣٩.

(د) قصة صالح عليه السلام سورة الذاريات ٤٣ ـ ٤٥ وسورة الأعراف ٧٣ ـ ٧٩ وسورة هود ٦١ ـ ٦٨، وسورة الشعراء ١٤١ ـ ١٥٨.

(هـ) قصة نوح عليه السلام: سورة الذاريات ٤٦، وسورة الأعراف ٥٩ ـ ٦٤، وسورة هود ٢٥ ـ ٤٨، وسورة الشعراء ١٠٥ ـ ١٢١.

(٤) وهب بن منبّه تابعي، عرف بالقصص والإسرائيليات، توفي سنة ١١٤ هـ أو قبلها. ينظر سير أعلام النبلاء ٤/٥٤٤.

(٥) الكسائي: محمد بن عبدالله، من علماء القرن الخامس الهجري، له كتاب: بدء الخلق وقصص الأنبياء، مطبوع. ينظر تاريخ الأدب العربي ٦/٥١. وفي كشف الظنون ٢/١٣٢٨ نسب حاجي خليفة الكتاب للكسائي النحوي، علي بن حمزة.

(٦) هو أحمد بن محمد بن إبراهيم مفسّر قصصي، توفي سنة ٤٢٧هـ ينظر سير أعلام النبلاء ١٧/٤٣٥. وكتابه «قصص الأنبياء» مطبوع.

الفرات[1]، وأبلغ من ذلك بياناً مُعاينة قصصهم لمن عاينها عند وقوعها. وإذا نظرت في كتابنا المسّمى بـ «الرياض النواضر في الأشباه والنظائر»[2] لاحت لك بارقة كبيرة من البيان ومراتبه إن شاء الله عز وجل.

الفصل الثالث :

إذا عرفت ما قدّمناه من مراتبَ فاعلم أن القرآن في مراتب بيانهُ على ذلك : فالفاتحة التي هي أمّ القرآن مشتملة على مقاصده الكلية من حيث الإجمال، ثم باقي القرآن يبينّ ذلك في رتبة ثانية من البيان، ثم السنة بينته في رتبة ثالثة من البيان، لأنها بيان القرآن، لقوله عز وجل : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[3] ثم العِيان في الدنيا والآخرة بيّنه في رتبة رابعة، وهي غاية البيان، إذ لا أبينَ من العِيان، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ﴾[4]، ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾[5] ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾[6] ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[7]، ﴿ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾[8] الآيات ونحوها.

ولنشرح ذلك على وجهٍ يظهر، وذلك من وجوه :

أحدها : أن القرآن مشتمل على مقاصد الإيمان، وهي التصديق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرّه. كما ثبت ذلك في حديث جبريل في الحديث الصحيح[9]، وهذا هو مقصود القرآن بالذات، ولذلك سمّى إيماناً في قوله عز وجل : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ ﴾[10] يعني بالقرآن فيما قاله بعضهم. وهذه المقاصد كلّها مشارٌ إليها في الفاتحة :

---

(١) وثيمة بن موسى بن الفرات، مؤرّخ له «أخبار الردّة» توفي سنة ٢٣٧هـ. وفيات الأعيان ٦/١٢. ونسب بروكلمان في تاريخ الأدب العربي ٣/٤٥ كتاب «بدء الخلق وقصص الأنبياء» لابنه عمارة.

(٢) ذكره ابن رجب في الذيل ٢/٣٦٧، وحاجي خليفة في كشف الظنون ١/٩٣٨.

(٣) سورة النحل، آية ٤٤. (٤) سورة الأعراف، آية ٥٣. (٥) سورة الأنعام، آية ١٥٨.

(٦) سورة الزمر، آية ٤٧. (٧) سورة يس، آية ٦٣. (٨) سورة الأحقاف، آية ٣٤.

(٩) وهو حديث مجيء جبريل عليه السلام في صورة سائل يسأل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان. ينظر البخاري ـ الايمان باب ١/١١٤، ومسلم ـ الإيمان باب ١/٣٩.

(١٠) سورة المائدة، آية ٥.

أما الإيمان بالله ففي قوله عز وجل : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1] فإن إيجاب الحمد لله عزّ وجل يقتضي أنّه موجود مستحقّ له.

وأما الإيمان بالملائكة فهو في ضمن قوله عز وجل ﴿ ربِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ إذ العالَمون مَن سوى الله عزّ وجل، ومنهم الملائكة، وأيضاً في ضمن قوله عزّ وجل : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾[2] ومن جملة المُنْعَم عليهم ذوي الصراطِ المستقيم الملائكةُ، لقوله عزّ وجل في صفتهم : ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[3] وهذا هو مقصود الصراط المستقيم.

وأما الإيمان بالكتب فقد تضمّنه قوله عزّ وجل : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ وهو القرآن في أحد الأقوال[4]، وهي متلازمة : فالقرآن مراد على تجميعها قصداً أو التزاماً، وسؤال الهداية يستلزم الإيمان به، إذ من لا يؤمن بشيء لا يَسأل الهداية إليه، والإيمان به يستلزم الإيمان بجميع كتب الله عز وجل، لأنه موافق مصدِّق لها، آمرٌ بالإيمان بها.

وأما الإيمان بالرسل : فقد تضمّنه قوله عزّ وجل : ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ إذ هم صفوة العالمين، وأبين منه قوله عزّ وجل : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ لأن الرسل صفوة المنعمَ عليهم. وقد بيّن الله عز وجل ذلك في قوله عزّ وجل : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[5] الآية. فبدأ بهم : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾[6]، ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ ﴾[7]، ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾[8] الايات ونحوها.

---

(١) سورة الفاتحة، آية ٦.
(٢) سورة الفاتحة، آية (٧).
(٣) سورة التحريم، آية ٦.
(٤) ينظر الطبري ١/٥٧، والدر المنثور ١/١٥.
(٥) سورة مريم، آية ٥٨.
(٦) سورة الزخرف، آية ٥٩.
(٧) سورة النمل، آية ١٩.
(٨) سورة يوسف، آية ٦.

وأما الإيمان باليوم الآخر ففي قوله عز وجل : ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ يعني يوم الحساب والجزاء، وحين يُدان الناس بأعمالهم : أي يُجْزَون.

وأما الإيمان بالقدر ففي قوله عز وجل : ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ. ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ﴾ إذ فيه بيان أن الإعانة على عبادته منه، والاستعانة به والهداية إليه، وإلى الأول الإشارة بقوله عزّ وجل : ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴾[1]، ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾[2] ونحوها وإلى الثاني الإشارة بقوله عز وجل : ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ ﴾[3] ونحوها من الآيات المثبتة للقدر.

فأما ما في القرآن من القصص وأخبار الأوّلين والآخرين فهو خارج مخرجَ التكملة للمقاصد المذكورة، وربما تضّمنه قوله عز وجل : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ . . ﴾ إلى آخر السورة، لأن المخبَر عنهم في القرآن لا يخرجون عن ان يكونوا مُنعَماً عليهم، أو مغضوباً عليهم، أو مهتدين، أو ضالّين، فهذا وجه.

والوجه الثاني أن القرآن مشتمِلٌ على الوعد والوعيد، والحلال والحرام، وغيرهما من الأحكام والقصص والأخبار : أما الوعد ففي ضمن قوله عز وجل : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ ، والوعد فيه ظاهر لاشتماله على صفتي الرحمة والإنعام. وأما الوعيد ففي قوله عز وجل : ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ إذ فيه إشارة إلى أنّه عز وجل مالك يوم الحساب والجزاء، فيجازي كلًّا بفعله : ﴿ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴾[4] وأيضاً قوله عز وجل : ﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ لأن صفتَي الغضب والضلال تقتضيان ترتّب الوعيد عليهما.

---

(١) سورة الليل، آية ٧.
(٢) سورة الصافات، آية ٩٦.
(٣) سورة الأعراف، آية ١٧٨.
(٤) سورة الانفطار، آية ١٩.

وأما الحلال والحرام ونحوهما من الأحكام ففي قوله عزّ وجل : ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ إذ المراد بالدين الجزاء المستلزم للتكليف بأحكام الأفعال المُجازَى عليها من إيجاب وحظر وكراهة وندب. وكذا قوله عز وجل : ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ فصرَّح بلفظ التعبّد الذي هو من التكليف الموجب لوجود الأحكام على المكلّفين.

وأما القصص والأخبار ففي قوله عز وجل : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ إلى آخر السورة. ويقرّره ما مرّ في الوجه قبله من أن المخبر عنهم إمّا منعَمٌ عليه أو مغضوب عليه، أو مهتد أو ضالّ. وما كان من الأخبار المعاديد، ففي قوله عز وجل: ﴿ مَٰلِكِ يومِ ٱلدِّينِ ﴾ وهي مذكورة في كتاب «العاقبة» وكتاب البعث والنشور[(1)] وغيرها من كتب السنة.

الوجه الثالث : أن القرآن لا يخرج عن أن يكون ثناء على الله عز وجل أو عبادةً له سبحانه وتعالى، والفاتحة أولها ثناء وآخرها عبادة، أعني دعاءً إليها. والعبادة تارة تكون بالدعاء نحو « **اهدنا** » وهو مخّ العبادة كما صحّ به الحديث[(2)]، ودلّ عليه قوله عز وجل : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي ﴾[(3)] الآية. وتارة بغير الدعاء نحو : ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾.

فهذه ثلاثة أوجه في بيان اشتمال الفاتحة على مقاصد القرآن من حيث الإجمال، وربما أمكن استخراج غيرها عند إمعان النظر، لكنّي لم أستقصه وإنما أوردت ما ظهر.

---

(1) ألف عدد من العلماء في البعث والنشور، منهم أبو داود، وابن أبي الدنيا، والبيهقي. كشف الظنون ١٤٠٢/٢.

كما ألف عبدالحق الأشبيلي المتوفى سنة ٥٨٢هـ كتاب «العاقبة» كشف الظنون ١٤٣٧/٢.

(2) الحديث في الترمذي ـ الدعاء ٢٦٦/٢، قال : غريب من هذا الوجه، لا نعرفه إلا من حديث لهيعة وينظر فتح الباري ٩٤/١١.

(3) سورة غافر، آية ٦٠.

خاتمـــة :

تُسمّى هـذه السورة «الحمـد» تسمية لها بـأول لفظ منهـا، و «الفـاتحـة» لافتتـاح القرآن بهـا، و «أمّ القرآن» و «الكتـاب » لما ذكـرنا، و «السبـع المثاني والقرآن العظيم» بـالكتاب ونصّ السنـة في حديث أبيّ بن كعب[1]. وسّميت مثاني لأنها تثنى في الصلاة : أي يتكرّر ذكرها. وقيل : لأنها نزلت مرّتـين بمكة والمدينة.

وتُسمّى الـواقيـة والشـافيـة لأنها تقي وتشفي من اتقى واستشفى بهـا. والرُّقية[2] لقوله عليـه الصلاة السـلام لأبي سعيد لمـا رقى بها اللديـغ : «**وما أدراك أنها رُقيـة**»[3]، ولعل لهـا أسماء غـير ما ذكـرنا، والـذي استحضرْناه الآن هو هذا، والله عزّ وجل أعلم بالصواب.

فصل :

وردت السنة بأن قراءة «إذا زلزلت» تعدل نصف القرآن، وقراءة «قل هو الله أحـد» تعدل ثلث القـرآن، وقراءة «قـل يـا أيهـا الكـافـرون» تعـدل ربـع القرآن[4]، وهذا يشبه كلامنا المذكور على الفاتحة، والكلام عليه في فصول :

أحدها : أنّه لا يمتنع تَرَتُّب الأجر الكثير على العمل اليسير لأسباب : منها نفاسة العمل في نفسه، كالكتابة المحـررة الجيّدة التي يُسـاوي السطر منهـا دينارا، كما يحكي عن بعض الكتاب أنه كـان إذا سُئل الصـدقة كتب للسـائل سطراً فيبيعه بدينار. ومنها عظم مصلحة العمل، كحركة هنـدسية يصلح بهـا

---

(١) نصّ القـرآن، في قولـه تعالى : ﴿ ولقد ءاتيناك سبعـا من المثاني والقـرآن العظيم ﴾ سـورة الحجـر ٨٧. ونصّ حديث أبي : «هي أمّ القرآن، وهي السـبع المثاني، وهي فاتحة الكتـاب» الترمـذي ـ التفسـير ١١/٢٨٧ وقـال : حسن صحيح. والنسـائي الافتتاح ٢/١٣٩، وأبو داود ـ الصلاة ٢/١٥٠.

(٢) جمع القرطبي أسماء الفاتحة . . . وزاد على مـا ذكر المؤلف هنـا ينظر ١/١١١ ـ ١١٣، والـطبري ١/٣٦، ٣٧، وجمال القراء ١/٣٣، ٣٤، والدر المنثور ١/٤.

(٣) البخاري ـ كتاب الطب باب ٣٣ ـ ١٠/١٩٨.

(٤) الترمذي ـ ثواب القرآن ١١/٢٢، ٢٥، وينظر البخاري ـ فضائل القرآن ٩/٥٩، وجامـع الأصول ٨/٤٨٥، ٤٩٠، ٤٩٤، وتفسير القرطبي ٢٠/١٤٦، وجمال القراء ١/٧١ ـ ٧٥.

قرص ببناء عظيم، أو يجري بها ماء إلى أرض، أو سقفٍ بها اعوجاج في أمر ونحو ذلك ومنها كرم من له العمل، مثل أن يسقط سوط الملك من يده، فيناوله إياه بعض العامة، فيعطيه على ذلك مالاً جزيلاً. ويروى عن الشافعي ـ رضي الله عنه ـ أن سوطه سقط من يده، فناوله إيّاه بعض العامة، فقال الشافعي لغلامه: أعطه ما معك من النفقة، فكان خمسين دينارا، وقال: لو كان معنا غيرها لأعطيناه[1]، وذلك لكرمه وسعة مروءته ـ رضي الله عنه ـ. وقد يتّجه غير ذلك من الأسباب.

وإذا عُرف ذلك فلا يبعد أن يعطى الله عز وجل قاريء سورة «الزلزلة» أجر قاريء نصف القرآن ببعض هذه الأسباب خصوصاً وقد ثبت بالسنة الصحيحة أن بعض القرآن أعظم وأفضل من بعض، كما ثبت أن الفاتحة أعظم السور[2]، وآية الكرسي أعظم الآيات[3]. فقد تختصّ هذه السورة بخصائص يعلّمها الشرع تقتضي أن يرتّب على قراءتها من الأجر ذلك، كما اختصّ بعض الأشخاص والأزمنة والأمكنة والأحوال بخواصّ اختصّت لأجلها بما ليس لغيرها من جنسها، وذلك كأشخاص الأنبياء والأولياء ظهر على أيديهم من المعجزات والخوارق ما لم يظهر على أيدي غيرهم من الأشخاص، وكما اختصّ رمضان والأشهر الحرم ويوم الجمعة وليلة القدر ويوم عرفة وعاشوراء ونحوها من الأزمنة بخصائصها المشهورة شرعاً، وكما اختص المسجد الحرام بأن صلاة الفرض فيه أفضل منها في غيره وبسائر خصائصه. واختص المساجد الثلاثة بشدّ الرحال إليها، وتضاعف الصلاة فيها على غيرها، ونحو ذلك. وكما اختصّت حال الجهاد بتضاعف أجر الصوم فيها، كما جاء في الحديث: **«من صام يوماً في سبيل الله باعده الله عن النار سبعين خريفاً»**[4].

(١) في مناقب الشافعي للبيهقي ٢/٢٢١ أنه اعطاه تسعة دنانير أو سبعة، وفي السير ١٠/٣٧ سبعة.

(٢) في حديث رواه مسلم ـ صلاة المسافرين باب ٤٣ ـ ١ / ٥٥٤ «... أبشر بنورين أوتيتهما، لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة» وينظر جمال القراء ١/٥٢، ٥٣.

(٣) ينظر البخاري الوكالة ـ باب ـ ١٠ ـ ٤/٤٨٧، وجمال القراء ١/٥٥ ـ ٥٧. (٤) سنن النسائي ـ الصوم ٤/١٧٤.

الفصل الثاني :

ينبغي لمن تلا هذه السور الثلاث منفردة، أو في جملة القرآن، بادئاً من أوله أو من آخره في غير الصلاة أن يكررّ سورة «الزلزلة» مرّتين، وسورة «الإخلاص» ثلاثا، وسورة «الكافرون» أربعاً ليستكمل بذلك ثلاث ختمات، أما في الصلاة ففي تكرار السورة خلاف مشهور، وتفصيل بين الفرض والنفل. وينبغي لمن كررّ هذه السور أن يكررّ البسملة في أول كل سورة بعدد قراءتها مرّات، لاحتمال كونها آية من كلّ سورة.

الفصل الثالث[1] :

في ذكر ما ظهر لي من مناسبة اختصاص هذه السور بما ذكر، أما توجيه أن «الزلزلة» تعدل نصف القرآن فلأن القرآن لا يخرج عن تقرير أمر معاش الناس ومعادهم.

وهذه السورة اختصّت بذكر أمر المعاد من زلزلة الأرض عند قيام الساعة، وإخراج أثقالها وهم الموتى، إشارة إلى البعث. وتحديث أخبارها، وصدور الناس عنها أشتاتا كأنهم جراد منتشر، ورؤية كلّ عامل ما عمل من خير أو شرّ فلم تتضمّن شيئاً غير ذكر المعاد. فلما اختصّت بجنس نصف مضمون القرآن جاز أن يقال : إنها تعدل نصف القرآن، وصار هذا كما قيل : «إن الفرائض نصف العلم»[2] كما كان للإنسان حالتا حياة وموت، وعلم الفرائض هو العلم المتعلّق بإحدى حالتيه وهو الموت، سمّي نصف العلم.

وأما توجيه أن ﴿ قل هو الله أحد ﴾ تعدل ثلث القرآن فلأن القرآن باعتبار قسمة أخرى لا يخرج عن تقرير التوحيد والنبوة وأحكام اليوم الآخر. وهذه السورة اختصّت بتقرير التوحيد. وذكره، لم يذكر فيها غيره، فكانت

---

(١) في الأصل (الفصل الأول).

(٢) ينظر الحديث ورواياته والتعليق عليه في سنن ابن ماجه ـ الفرائض ٩٠٨/٢، وفتح الباري ٢٥/١٢، وإرواء الغليل ١٠٤/٦.

بهذا الاعتبار تعدل ثلث القرآن، لاشتمالها على ثلث مضمونه وهو التوحيد[1]. وهذه القسمة لا تخالف ما ذكرناه من تضمّن القرآن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، لأن تقرير النبوّة يتضمّن إثبات الملائكة والكتب والرسل، لاستلزام النبوّة نبياً يتلقّى الوحي عن الله عزّ وجل بواسطة الملك.

وأما توجيه أن ﴿ **قل يـٰ أيها الكافرون** ﴾ تعدل ربع القرآن، فلأن الخطاب في القرآن إما للمؤمنين أو للكفّار، والمؤمنون ضربان: **أحدهما** مؤمن بالكتاب الأول، فخوطب بالإيمان بالكتاب الثاني وهو القرآن، كقوله عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[2] يعني: يا أيها الذي آمنوا بالكتاب الأوّل آمِنوا بمحمدٍ والقرآن. **الضرب الثاني**: مؤمن بالكتاب الأوّل والآخر، وهم هذه الأمة، خوطبوا بتكميل الإيمان من فعل العبادات ونحوها من الفروع نحو: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ ﴾[3]، ﴿ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾[4] وأشباه ذلك.

والكفار أيضاً ضربان: ضرب يُخاطب بالدعاء إلى الإيمان نحو: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾[5] ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾[6] ونحو ذلك.

وضربٌ يخاطب بالتبرؤ مما هو عليه نحو: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ ﴾[7] إلى آخرها. فأمر النبي ﷺ أن يخاطبهم بأنه متبرّيء منهم وممّا يعبدون، فكانت هذه السورة ربع القرآن بهذا الاعتبار.

---

(١) نقل ابن الأثير في جامع الأصول ٤٨٦/٨ عن العلماء: «إن القرآن لا يعدو ثلاثة أقسام، وهي الإرشاد إلى معرفة ذات الله وتقديسه، أو معرفة صفاته وأسمائه، أو معرفة أفعاله وسنته مع عبادة، ولما اشتملت سورة الإخلاص على أحد هذه الأركان الثلاثة وهو التقديس وازنها رسول الله بثلث القرآن..» وينظر القرطبي ٢٤٧/٢٠، وفتح الباري ٦١/٩.

(٢) سورة النساء، ١٣٦. (٣) سورة الجمعة، آية ٩. (٤) سورة البقرة، آية ٢٨٢.

(٥) سورة البقرة، آية ٢١. (٦) سورة الأنفال، آية ٣٨. (٧) سورة الكافرون، الآيتان ١، ٢.

خاتمـــة :

قولنا : هذه السورة نعدل نصف القرآن أو ثلثه أو ربعه يحتمل أنها تعدله في أجر قراءته، ويحتمل أنها تعدله في اقتسام مضمونه، وقد أشرنا إلى الاحتمالين جميعاً، والله عز وجل أعلم بالصواب(١).

فصـــل :

وردت السنة بتأكيد أمر القلاقل : وهي سورة الكافرون والإخلاص والفلق والناس، وبتأكيد أمر المعوّذات : وهي الثلاث الأخر(٢)، وقد تكلّمنا على الأوّلين فلنتكلّم على الآخرين.

وإنما سمّيت هذه المعوِّذات بكسر الواو لأن الله عزّ وجلّ أنزلهما معوِّذات لنبيّه عليه الصلاة والسلام حين سحره لبيد بن الأعصم اليهودي، وليَعوّذ بها أمّتُه، وإن كان لسورة الإخلاص سبب آخر(٣)، والكلام في نكت:

إحداهنّ : لما كانت الصفات تابعة للذات، كان اسم الذات مَقدّماً على الصفات، وسورة الإخلاص مشتملة على اسم الذات، فلذلك قد قُدِّمَتْ في التعوّذ على سورة الفلق والناس لا شتمالهما على أسماء الصفات نحو : ﴿ ربّ الفلق ﴾ و﴿ رب الناس ملك الناس ﴾.

الثانية : معنى (أعوذ) ألجأ وألوذ (بربّ الفلق) يعني فلق الصبح، من قوله عز وجل (فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ)(٤) وقول عائشة : «كان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصبح»(٥) وأضاف نفسه عز وجل إلى الفلق لأنه من أعظم الآيات، ولذلك أقسم به في قوله عز وجل:﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾(٦) ويقال : فَلَق الصبح وفَرقَ الصبح وقد قال عز وجل : ﴿ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٍ ﴾(٧) فأتى

(١) ينظر فتح الباري ٦١/٩.

(٢) ينظر الترمذي ٢٨/١١، والمستدرك ٥٣٨/٢، ٥٤٠، ٥٤١، وجمال القراء ٧٢/١ ـ ٧٥ والقرطبي ٢٢٤/٢٠، ٢٤٧، ٢٥١، وفتح الباري ٦٣/٩، والدر المنثور ٤٠٥/٦، ٤١٦.

(٣) ينظر القرطبي ٢٥١/٢٠، والدر المنثور ٤١٧/٦.

(٤) سورة الأنعام، آية ٩٦.

(٥) البخاري ـ بدء الوحي ٣ ـ ٢٢/١، ومسلم الإيمان ٧٣ ـ ١٣٩/١.

(٦) سورة التكوير، آية ١٨. (٧) سورة الشعراء، آية ٦٣.

بمادة «فلق» و «فرق» فهما بمعنى. وقوله عز وجل: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ هذا عام يتناول كل ما سوى الله عز وجل، لأنه خلقه. قوله عز وجل: ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ إلى آخر السورة هو من باب عطف الخاص على العام، لأن (الغاسق) و (النفاثات) و (الحاسد) من جملة ما خلق الله عز وجل. وإنما اختصّت هذه بالذكر بعد العموم لأن متعلّقاتها مهمة جداً، وذلك لأن قوام الإنسان ببدنه وعقله ودينه وباقي نعم الله عز وجل عليه. والغاسق إذا وقب: قيل: هو الثعبان إذا وثب وضرب، وهو يفسد البدن. والنفاثات: السحارات، والسحر مفسد للعقل، لأن الإنسان إذا سُحر غلب خياله على عقله فعاد يخيل له ما لا وجود له في الخارج، وهو مفسد للبدن أيضاً، ولذلك وجب القود بالقتل به عند جماعة من أهل العلم[1]. والحاسد يفسد النعمة بالسعي في زوالها ببدنه ونفسه. ومن جملة النعمة الدين الحق، وقد يسعى الإنسان في إفساد الدين حسداً، كما حكى الله عز وجل عن أهل الكتاب أنهم كانوا يفعلون ذلك حسداً بالمسلمين، حتى قال عز وجل: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾[2] ﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾[3] الآية. وإن قيل: إن الغاسق هو القمر، فإن له ـ فيما يقال ـ تأثيراً في الأجسام الأرضيّة. كتقطيع الثياب الكتان، وتمديد الزروع، ودوران المد والجزر معه في بعض البحار، فلعّل له تأثيرات أخرى فيها شرور.

وإن قيل: إن الغاسق هو الفرج[4] ـ على ما قيل ـ فشرّه ظاهر، وأكثر شرور العالم من جهته.

وإن قيل: هو الليل، فإن الشرّ فيه ظاهر مزعج. وأما ظهوره فلانتشار

(١) ينظر تفسير القرطبي ٢/٤٧، وفتح الباري ١٠/٢٢٤.

(٢) سورة البقرة، آية ١٠٩.

(٣) سورة آل عمران ٦٩.

(٤) لم أقف على هذا التفسير في الكتب المعتمدة وقد ذكر السيوطي في الإتقان ٢/١٨٧ ـ في غرائب التفسير ـ بعض الآيات التي فسرّت تفسيراً لا يصحّ الاعتماد عليه، وذكر هذا منه.

الهوام والشياطين فيه من الجن والإنس وغير ذلك. وأما إزعاجه فلأنه يلقى الإنسان نائماً أو ساكناً فيكون له من الروع ما ليس له في النهار.

الثالثة: قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ . مَلِكِ ٱلنَّاسِ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ الربّ والملك والإله مترتبة في العموم والخصوص، فالربّ أعمها، لأنه قد يكون ملكا وقد لا يكون، وكذلك الملك قد يكون إلـٰها وهو الله عز وجل وحده، وقد لا يكون. وأضاف الله عز وجل نفسه إلى الناس لأنهم من أشراف العالم، كما كان الفلق من أعظم الآيات، فإذا تعوّذ الإنسان بإله الناس امتنع الشيطان من الإقدام عليه امتناعاً اختيارياً واضطرارياً لعظمة من تعوَّذ به، وهذا موجود في عرف الناس.

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ أي الذي يوسوس كما بُيّن بعد. والوسوسة في الأصل: الحركة والاضطراب، قال الأعشى:

تسمع للحلي وسواسا إذا انصرفت كما يناب بريح عشرق زجل[1]

ووسوسة الشيطان حركة روحانية خفية يُلقيها الشيطان إلى نفس الإنسان بواسطة جريانه منه مجرى الدم، أو كما يشاء الله عز وجل: ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ الذي يوسوس تارة ويخنس: أي يميل ويسكن تارة. ويقال: إن الشيطان خاتم على قلب ابن آدم، فإذا غفل عن الذكر وسوس الشيطان[2]، فإذا ذكر الله عز وجل خنس: أي مال وسكت عن الوسوسة، ومنه ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾[3] يعني النجوم تجري في افلاكها ثم تخنس: أي تميل للغروب أو تجري في أفلاك استقامتها ثم تميل في افلاك تداويرها، ونحوها من أحوال رجوعها.

قوله عزّ وجل: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ يحتمل

---

(١) ديوان الأعشى ص ٥٥ والعشرق: شجر صغير له حب إذا جف وحركه الريح سمع له صوت. والزجل: الصوت العالي.

(٢) الطبري ٣٠/٢٢٩، والدر المنثور ٦/٤٢٠.

(٣) سورة التكوير، الآيتان ١٥/١٦.

هذا وجهين : أحدهما أن يكون المعنى الذي يوقع الوسوسة في صدور الناس، فيكون ذلك أعم من أن يكون هو في الصدور أو خارجاً عنها، الثاني : أن يكون المعنى : الذي يوسوس كائناً أو مستقرا في صدور الناس، فيكون محل الجار والمجرور نصباً على الحال، وهو أوفق للسنة الصحيحة، وهو قوله ﷺ : « **إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم** » [1].

واعلم أن الوسوسة على القلب، وإنما يعبر عنه بالصدر لأنه محل القلب كما عبّر عن العقل بالقلب لأنه محله في قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾[2] وقوله عز وجل : ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ هذا بيان لخنس الخنّاس وتقسيم له إلى نوعين الجنة والناس، أي من شر الوسواس الخناس الذي هو من الجنة والناس، وهذا نص قوله عز وجل : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾[3] وهو معنى قولهم : ﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾[4] في بعض الأقوال والله عز وجل أعلم بالصواب.

٤٠

(١) البخاري ـ الاعتكاف ـ باب ٨ ـ ٤/ ٢٧٨، ومسلم ـ السلام ـ باب ٩ ـ ٤/ ١٧١٢.
(٢) سورة ق، آية ٣٧.
(٣) سورة الأنعام، آية ١١٢.
(٤) سورة الأنعام، آية ١٢٨.

مصادر التحقيق

١ ـ القرآن الكريم.
٢ ـ الإتقان في علوم القرآن ـ السيوطي ـ القاهرة ـ المكتبة التجارية ١٣١٨ هـ.
٣ ـ إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل ـ لمحمد ناصر الدين الألباني ـ بيروت : المكتب الإسلامي ١٣٩٩ هـ.
٤ ـ تاريخ الأدب العربي ـ كارل بروكلمان ـ الأصل الألماني ـ ليون : إبريل ١٩٤٣م.
٥ ـ تفسير القرآن الكريم (جامع البيان) ـ للطبري ـ القاهرة : مطبعة الحلبي ١٩٥٤م.
٦ ـ تفسير القرآن الكريم (الجامع لأحكام القرآن ـ للقرطبي ـ القاهرة : دار الكاتب العربي ١٩٦٧م.
٧ ـ جامع الأصول من أحاديث الرسول ـ لابن الأثير ـ تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط ـ دمشق ؛ مكتبة الحلواني ١٣٨٩هـ.
٨ ـ جمال القراء ـ لعلم الدين السخاوي ـ تحقيق د. علي حسين البواب ـ مكة المكرمة : مكتبة التراث ١٤٠٨هـ.
٩ ـ الدر المنثور ـ للسيوطي ـ القاهرة : المطبعة الميمنية ١٣١٤هـ.
١٠ ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ـ لابن حجر العسقلاني ـ تحقيق محمد سيد جاد الحق ـ القاهرة : دار الكتب الحديثة ١٣٨٥هـ.
١١ ـ ديوان أمية بن أبي الصلت ـ تحقيق سيف الدين الكاتب، وأحمد عصام الكاتب ـ بيروت : مكتبة دار الحياة ١٩٨٠م.
١٢ ـ الذيل على طبقات الحنابلة ـ لابن رجب ـ القاهرة : مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٢م. تحقيق محمد حامد الفقي.
١٣ ـ سنن الترمذي (مع عارضة الأحوذي) القاهرة : المطبعة المصرية ١٩٣١م.
١٤ ـ سنن أبي داود ـ تحقيق عزة الدعاس وعادل السيد ـ سوريا ـ حمص : دار الحديث ١٣٨٨هـ.
١٥ ـ سنن ابن ماجه ـ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ـ القاهرة : مكتبة الحلبي ١٩٥٢م.
١٦ ـ سنن النسائي ـ مصورة بيروت : دار الفكر ١٣٩٨هـ.
١٧ ـ سير أعلام النبلاء ـ للذهبي ـ تحقيق مجموعة من المحققين ـ بيروت : مؤسسة الرسالة ١٤٠١ هـ وما بعدها.
١٨ ـ شرح مختصر الروضة ـ للطوفي (الدراسة) إعداد د. إبراهيم بن عبدالله آل إبراهيم ـ الرياض ١٤٠٩هـ.
١٩ ـ صحيح البخاري ـ استانبول : المكتب الإسلامي ١٩٧٩م.
ومقدمة الكتاب بتحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي ـ بيروت : مؤسسة الرسالة ١٤١٠هـ.

٢٠ ـ صحيح مسلم ـ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ـ القاهرة : مكتبة الحلبي.
٢١ ـ فتح الباري ـ لابن حجر العسقلاني ـ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ـ القاهرة : المكتبة السلفية.
٢٢ ـ كشف الظنون ـ لحاجي خليفة ـ مصوّرة ببيروت : دار العلوم الحديثة عن طبعة استانبول.
٢٣ ـ مجمع الأمثال ـ للميداني ـ تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ـ القاهرة : المكتبة التجارية ١٩٥٩م.
٢٤ ـ المستدرك على الصحيحين ـ للحاكم النيسابوري ـ سوريا ـ حلب : مكتب المطبوعات الإسلامية.
٢٥ ـ المصلحة في التشريع الإسلامي ونجم الدين الطوفي ـ د. مصطفى زيد ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ـ دار الفكر العربي ١٣٨٤هـ.
٢٦ ـ المفردات ـ للراغب الأصبهاني ـ القاهرة : الحلبي.
٢٧ ـ مقاييس اللغة ـ لأحمد بن فارس ـ تحقيق عبدالسلام هارون ـ القاهرة : مطبعة الحلبي ١٣٩١هـ.
٢٨ ـ مناقب الإمام الشافعي ـ للبيهقي ـ تحقيق السيد أحمد صقر ـ القاهرة : دار التراث ١٩٧١م.
٢٩ ـ هدية العارفين في أسماء المؤلفين ـ لإسماعيل باشا البغدادي ـ استانبول : وكالة المعارف ١٩٥١م.
٣٠ ـ وفيات الأعيان ـ لابن خلّكان ـ تحقيق د. إحسان عباس ـ بيروت : دار الثقافة ١٩٦٨م.

رقم الإيداع	٩٩/٩٧٦٢
الترقيم الدولي	977-5250-51-X

دار المصرى للطباعة

ت: ٣٨٣٦٥١٦ ــ الهرم

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد / الظاهر
ت : ٥٩٢٢٦٢٠ فاكس : ٥٩٣٦٢٧٧